

# العلاقة بين صلاح الدين و ابي يوسف يعقوب

المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدى

للدكتور سعد زغلول عبد الحميد

مع مطلع القرن الحادى عشر الميلادى بدأت خلافة الامويين بقرطبة تضمحل ، وهكذا بدأت حركة الغزو المسيحية بالاندلس (La Reconquista) تأخذ شكلا جديا مزعجا .

ترزعت قشتالة هذه الحركة ، وساعدتها الممالك الاسبانية الفتيية الاخرى مثل ليون وأرجون ثم البرتغال على زحزحة حدود الاسلام نحو الجنوب يوما بعد يوم . واضطرت العناصر العربية فى الغرب الاسلامى اثر ذلك أن تترك المجال الى العناصر الوطنية « البربرية » لتقيام بحماية أرض الاسلام والدفاع عن حدوده فى تلك الجهات . هكذا قامت دولة المرابطين ، وتمكنت من ضم الممتلكات الاسلامية بجزيرة الاندلس الى المغرب ، وتوحد بذلك الغرب الاسلامى بصفة جدية لأول مرة ، وبدأ يتحرر بشكل واضح من الوصاية التى فرضها عليه الشرق الاسلامى والخلافة - ولو بصفة نظرية معنوية . وبدأ الجهاد من جديد ضد أعداء الاسلام فى أسبانيا ، لاستعادة الاراضى التى فقدتها المسلمون ابان ضعف خلافة قرطبة وبمد مقروطها . وألحق بممالك النصرانية فى شمال الجزيرة هزائم كثيرة كما دفع حدودها شمال نهر تاجو . ويعتبر الانتصار الاكبر الذى أحرزه يوسف بن تاشفين فى الزلاقة (Sacralias) - ٧٩٤هـ / ١٠٨٦م) - والذى اقترن باسمه وخلده فى صفوف المجاهدين - ذروة المجد التى بلغها المرابطون .

فى هذا الوقت الذى تجددت فيه قوات المسلمين فى غربى البحر

التوسط اكتسح الصليبيون البلاد الاسلامية في شرقى ذلك البحر واستولوا على بيت المقدس ٥٤٩٢هـ / ١٠٩٩ م . وبذلك اتسع نطاق الصراع بين أوروبا المسيحية التي شجرت بقوتها ودولة الاسلام ، واتخذ شكل حرب عامة عبا لها الفريقان كل قواهما المادية والبشرية . دارت هذه الحرب منذ ذلك الوقت في جبهتين أو ميدانين ثابتين : سوريا وفلسطين في الشرق حيث كان الفرنج يكتونون نواة الجيوش الصليبية والترک نواة الجيوش الاسلامية ، والاندلس في الغرب حيث دار القتال بين الاسبان - يعاونهم الاقطاعيون من أنحاء أوروبا لاسيما الفرنج - وبين البربر يناصرهم العرب في تلك الجهات .

ثم بدأ القرن الثانى عشر باستقرار الصليبيين في الشام ، وضعف دولة المرابطين في المغرب حيث ظهرت دولة بربرية جديدة هي دولة المصامدة أو دولة الموحدين أتباع محمد بن تومرت .

قام ابن تومرت بحركته كمصلح دينى أو « أمر بالمعروف » وساعدته الظروف ولاسيما تعلمه بالشرق على جمع شتات قبائل المصامدة بجبال درن ( أطلس ) ، وكون حزبا أو مذهبا جديدا هو حزب الموحدين ، هدف هذا الحزب هو الرجوع بالاسلام الى مبادئه النقية الاولى ، والقضاء على الاختلافات المذهبية ، وتبعا لذلك تحقيق وحدة عالم اسلامى فتى يمكنه معاودة الفتوحات فى أرض الكفار .

نظم ابن تومرت حزبه الجديد على أساس عسكري دينى ، وانفرد بالزعامة الدينية متخذاً لقب المهدي أو الامام المعصوم ، وترك لتابعه المخلص عبد المؤمن بن على الزعامة العسكرية للحرب .

واصل عبد المؤمن بعد موت ابن تومرت الصراع ضد المرابطين فاستولى على مراكش ( ٥٤١هـ / ١١٤٦م ) وطرد النورماندين من افريقية ، وتمكن من توحيد المغرب كله ، ثم بدأ فى غزو الاندلس .

واتخذ عبد المؤمن لقب « الخليفة » قاطعا بذلك وبصفة نهائية كل تبعية - ولو شكلية - بين المغرب وخلافة بغداد ، مكونا من أسرة خلافة

جديدة هي أسرة الموحدين التي أخذت على عاتقها مواصلة الجهاد في أسبانيا ، وتمكنت من رد النصارى بعيدا عن ممتلكات الاسلام شمال نهر تاجو ، بل وتوغلت في أرض «الكنفار» ناشرة الدمار والخراب في كل مكان .

وتمكن يعقوب المنصور حفيد عبد المؤمن من احراز انتصار كبير في وقعة الارك (Alarcos) (٥٩١ هـ / ١٩٥ م) ألزم النصرانية السكينة في الاندلس ، وظهر تفوق المغرب بشكل واضح ، حتى ظن أن المشكلة الاسبانية ستنتهي على أيدي المصامدة الى صالح الاسلام .

في الوقت الذي اعتلى يعقوب المنصور عرش خلافة الموحدين بمراكش (٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م) ، كان موقف صلاح الدين قد بدأ يثبت في مصر والشام ، وذلك بوفاة آخر الفاطميين في القاهرة (٥٦٧ هـ / ١١٧١ م) ، ثم وفاة نور الدين (٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م) . وبوصول صلاح الدين ويعقوب الى السلطان يأخذ الصراع بين النصرانية والاسلام شكلا جديا ويبدأ المسلمون يكيلون اللطمات لخصومهم في الشام وفي الاندلس دون هوادة . ولكن هناك ملاحظة سبقت الاشارة اليها وهي : رغم أن الصراع في طرفي البحر المتوسط كان صراعا بين أوروبا المسيحية والاسلام بوجه عام ، الا أنه في كلتا المنطقتين له صفاته الخاصة ، فبينما يقوم صلاح الدين بالحرب في الشام باسم الخلافة العباسية أي الخلافة السنية التي لها السلطان الشرعي - اسما على الأقل - على جميع المسلمين ، نجد أن المجاهد المغربي يقوم بالحرب في الاندلس باسم خلافته الخاصة أي خلافة الموحدين . هذا من الناحية الشرعية إذ أن عبء الحرب كان واقعا من الناحية العملية على المتخاصمين الموجودين في مناطق القتال شرقا أو غربا - وذلك إذا استثنينا المساعدات الآتية من الخارج .

بدأ صلاح الدين حملته المظفرة في الشام في صيف سنة ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م وكللت الحملة باستعادة بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م ، وكتب عماد الدين الاصفهاني - كاتب صلاح الدين - الى ملوك الاسلام يشرهم بالنصر

المين ، الا أن خطر الصليبين لم يكن قد زال نهائيا ، اذ أن « جى دى لوزينيان » كان يحاصر عكا ، ثم ان سقوط بيت المقدس كان له وقع شديد في أوروبا سيكون من نتائجه قيام الحملة الصليبية الثالثة ، كما وردت الانباء الى صلاح الدين ( ٥٨٥هـ / ١١٨٩ م ) عن استعداد ملك الالمان « فردريك بارباروسا » الذى اتخذ طريق البر مارا بالقسطنطينية على رأس جيش يبلغ ٦٥ ألفا حسب رواية العماد نفسه « ١ » .

أزعجت هذه الانباء صلاح الدين وقد كان مريضا حينذاك ، ورأى أنه لأبد من الاستتجاد بسلوك المسلمين ، حتى يمكنه مقاومة جحافل الصليبين المنتظرة . فأرسل الكتب وبعث الرسل الى مختلف الجهات « ٢ » . وحدث أيدينا نص رسالتين صدرتا عن ديوان الانشاء بمصر . والمرجح أنهما من انشاء القاضى الفاضل فى سنة ٥٨٥هـ - ١١٨٩م وسنة ٥٨٦هـ / ١١٩٠م . الرسالة الأولى وردت فى كتاب صبح الأعشى للقلقشندي « ٣ » ، والثانية فى كتاب الروضتين لأبى شامة « ٤ » . وهى التى سماها عبد الرحمن ابن منقذ رسول صلاح الدين الى المغرب « ٥ » .

- (١) الفتح القسى ، طبعة C. de Landberg ، بليدن ، ١٨٨٨ ، ص ٢١٤  
(٢) الفتح القسى ، طبعة ليدن ، ص ٢٣٤ ، أبو شامة ، كتاب الروضتين ، طبعة القاهرة ، ح ١ ص ١٧٠ .  
(٣) صبح الاعشى ، القاهرة ، ح ٦ ص ٢٦ - ٥٣٠ - هذه الرسالة كما يحفظها القلقشندي لاتحمل تاريخا ، ولكن يمكن القول بانها كتبت فى الفترة التى كان ينتظر فيها صلاح الدين وصول « فردريك بارباروسا » وموت هذا الأخير اى خريف عام ١١٨٩ . انظر Godefroy - Demombynes. Mélanges René Basset, Une lettre de Saladin au calife almohode t. II. p. 289.  
(٤) كتاب الروضتين ، ح ٢ ص ١٧٠ وما بعده .  
(٥) المرجع السابق . نلاحظ هنا ان ابا شامة يقول عن هذه الرسالة الثانية ، انها دونت فى ٢٨ من شعبان سنة ٥٦٨هـ / ١٥ أكتوبر سنة ١١٩٠م ، وان رسول صلاح الدين غادر الاسكندرية فى ١٢ رمضان سنة ٥٨٦هـ / ١٥ أكتوبر سنة ١١٩٠م فى شينى عمارته ١٢٠ رجلا . ولكن رغم التفصيلات الدقيقة التى يعطيها أبو شامة ، فان الشك الذى يحيط بهذه التفصيلات يجعلنا نفضل الرجوع الى ابن عذارى فهو مرجع موثوق به وهو اكثر ضمانا فى هذا المضمار (Anónimo do Madrid y Copenhague - Anales del Instituto General y Tecnico, de Valencia, Valence, 1917 ترجمة اسبانية  
بمعرفة الأستاذ H. Huici )

أما الرسالة الاولى فقد ذكرها القلقشندي كنموذج للرسائل الصادرة الى خلفاء الموحدين بالمغرب ، وللنوع الذي يكتب من ملك الى آخر ، والرسم فيه « أن تفتح الرسالة بالدعاء المناسب للحال ثم يعبر المکتوب عنه عن نفسه بنون الجمع ، ويخاطب المکتوب اليه بأمر المؤمنين » (٦) .

وأما الرسالة الثانية التي نقلها أبو شامة ، فهي تضي على الخليفة الموحدي وعلى صلاح الدين كذلك عددا من الالقاب غير الرسمية ، أي التي أتى بها الكتائب متأثرا بالاسلوب المستعمل وقتذاك والذي كان يعتمد اعتمادا كليا على السجع والمحسنات البديعية المختلفة ، فهو يلقب المنصور الموحدي مثلا بالاسفهلار الاصيل ، العالم المحترم ، تاج الدولة ، أمير الملة ، صفوة الملوك والسلطين .

هنا يظهر تضارب في الشكل بين الرسالتين ؛ يجعلنا نشك في أنهما نقلتا بأمانة عن الاصل ، أي يجعلنا نشك في اصالتها ؛ اذ ليس من المعقول أن يسمح صلاح الدين بتلقيب المنصور في الرسالة الاولى بأمر المؤمنين ، أي أن يعترف بخلافته ثم يرضن عليه بهذا الاعتراف في الرسالة الثانية . لاسيما وأن هذه الاخيرة كان يحملها الى المغرب رسول له خطرده . بمعنى أن صلاح الدين كان جادا في توثيق علاقته بالموحدين » (٧) .

ما يثير الشك كذلك في اصالة هذه الرسالة أن أبا شامة يقول قبل أن يوردها : « كان بلغني أن السلطان - رحمه الله - لما اشتد أمر الفرنج على

(٦) صبح الاعشى ، ح ٦ ص ٢٦ - ٥٢٧ . تلاحظ ان الرسالة عندما تذكر الخليفة الموحدي بعد ذلك تخاطبه بكلمة سيدنا ( ص ٢٧-٢٨-٥٢٩ ) .

(٧) هنا يمكن التفكير في ان الرسالة الاولى ربما كانت من صنع القلقشندي فهو كما نرى يضعها كنموذج للرسائل التي يخاطب فيها المکتوب اليه بأمر المؤمنين ، هذا مع العلم بأن الرسالة تكرر بعد ذلك مخاطبة المنصور بكلمة سيدنا ( انظر الهامش السابق ) . هذا واذا قارنا هذه الرسالة برسالة أخرى كتبها القاضي الفاضل نفسه باسم صلاح الدين الى الخليفة المستضيء ببغداد ( القلقشندي ، صبح ، ح ٦ ص ٥٠٦ ) نرى كيف يتكرر لقب أمير المؤمنين باستمرار مما يؤيد الشك في رسالة القلقشندي .

عكا أرسل الى ملك المغرب يستنجد به عليهم ، ليقطع عنهم مادتها من جهة البحر . وكنت أطلب حقيقة ذلك وأبحث عن شرح واف ، فان العماد والقاضي لم يتعرضا له في كتبهما . غير أن العماد ذكر كتابا كتبه القاضي الفاضل الى رسولهم بالمغرب يستنجز منه ما كان أرسل لاجله » . ويقول بعد ذلك : « ثم أرانى بعض الشيوخ الصلحاء الثقة بخطه ما كنت أرومه : نسخة كتاب كتبه القاضي الفاضل ونقلته من خطه لابن منقذ » (٨) .

بعد ذلك قرأ في كتاب الروضتين أن المؤلف وقف على كتاب « فاضلى للسلطان يشعر بأن الرسالة المغربية لم تكن برأى الفاضل ولا هو مختار لها » . في هذا الخطاب يتضح أن القاضي الفاضل لم يكن يرغب في كتابة رسالة للمغرب ، ولا في سفر رسول ، رغم أنه يؤكد أنه لم يكن يكره ذلك . وهو يتكلم بعد هذا عن لقب أمير المؤمنين ، ويقول أنه « لا يمكن الا التعريض لا التصريح » ، وفي نهاية الخطاب يتضح أن ابن منقذ رسول صلاح الدين كان يريد أن يكون الخطاب باسم أمير المؤمنين ، لانه لا يستطيع أن يخاطب القوم الا بهذه التحية ، وأن صلاح الدين كان يوافق على ذلك ولكن رأى الفاضل النهائى كان يستصوب ترك اللقب في الكتاب مبهما ، تاركا الحرية للرسول بمخاطبة الخليفة الموحدى بلقب أمير المؤمنين اذا رأى أن هذا له من القوة ما يؤهله لحمل اللقب ، وأنه على استعداد لمساعدة صلاح الدين (٩) .

كل هذا يظهر أنه كان هناك اختلاف في رأى بين رجال البلاط المصرى ، وأنه ربما لعبت الضغائن والحزازات الشخصية دورا مهما في هذا الشأن ، كما يتضح مما تقدم أن الرسالتين بحالتهما الحاضرة مشكوك في صحتها شكلا ، أما من ناحية الموضوع فهما مقبولتان دون نقاش ، فصلاح الدين كان يطلب المعونة من كل أمراء الاسلام ، وفي حالة المغرب هذه كان يطلب المساعدة البحرية من الموحدين ضد النصارى الذين كانوا

(٨) كتاب الروضتين ، ح ٢ ص ١٧٠ .

(٩) نفس المرجع ، ح ٢ ص ١٧٥ - ١٧٥ .

يستعدون لغزو الشام ، تساعدهم أساطيل جنوه والبندقية وصقلية وغيرها .  
هكذا أقنع أبو الحارث عبد الرحمن بن منقذ من الاسكندرية ووصل  
افريقية في شهر رجب سنة ٥٨٦هـ / أغسطس ١١٩٠ «١٠» . وواصل السير  
بعد ذلك حتى مدينة يجابة من أرض افريقية أيضا . ورغم التكتّم الشديد  
الذي لزمه رسول صلاح الدين بشأن الغرض من رحلته ، فانه قوبل بمقابلة  
طيبة من ولاية وعمال ومثلى يعقوب بافريقية وبالمغرب ، اذ كانت قد  
وصلتهم تعليمات من المنصور الذي كان مشغولا اذ ذاك بالحرب ضد  
البرتغال ، هذه الاوامر كانت تلزمهم بالآيصال الرسول عن الغرض من  
رحلته الى المغرب «١١» . ولاغرابة فذلك مظهر من مظاهر الحكم المطلق ،  
فيعقوب لا يريد أن يحل محله أحد في تصريف أمور دولته ، وهو يريد أن  
يكون صاحب الكلمة الاخيرة في كل شأن من شئونها . وطلب الخليفة  
الموحدي أن يستصحب ابن منقذ الى مدينة فاس لينتظره هناك الى أن  
يعود من الاندلس «١٢» .

وفي فاس شاهد ابن منقذ عظمة المدينة المغربية الكبيرة التي بهرته  
بجمالها وكبر حدائقها واتساع ضياعها «١٣» . وقد أصيب المنصور بالمرض  
اثر عودته من الاندلس الى مراكش ، ورغم مرضه فقد كان يقوم شخصيا  
بالإشراف على كل شئون الدولة وخاصة خلال مدة النقاهة التي كانت

(١٠) ابن عذارى (Anonimo) ، ص ٦٣ . نلاحظ كما سبق ان اشرنا  
( هامش ٥ ) ان ابا شامة ( ح ٢ ص ١٧٣ ) وابن عذارى لا يتفقان على هذا  
التاريخ ، فالاول يقول ان رسول صلاح الدين لم يصل الى طرابلس الا في ٢٥  
من شوال / ٢٥ من نوفمبر وانه مكث هناك حتى ٨ من ذي القعدة / ٧ من  
ديسمبر .

(١١) ابن عذارى (Anonimo) ، ص ٦٣ .

(١٢) المرجع السابق ، كتاب الاستبصار ، مخطوطة بالمكتبة الوطنية بباريس  
رقم ٢٢٢٥ ص ٢٩ - ب . ومؤلف هذا الكتاب وكان يكتب بالثوب في شهر  
رجب سنة ٥٨٧ / يونيه ١١٩١ يقول أن ابن منقذ كان في فاس في هذا الوقت  
منتظرا الاوامر الخليفة أي اوامر يعقوب ، انظر ابن خلدون ، العبر ، طبعة  
القاهرة ح ٦ ص ٢٤٦ ، والسلاوي ، الاستقصا ، طبعة القاهرة ، ح ١ ص ١٧٤  
(١٣) العمري ، مسالك الابصار ، ترجمة فرنسية ، طبعة باريس ، ١٩٢٧ ،  
ص ١٦٠ ، والقلقشندي ، صبح ، ح ٦ ص ١٥٧ ، حيث ينقل عن العمري .

تنقطع من حين الى حين باشتاد المرض «١٤» . وبعد أن قضى بعض الوقت بعاصمة ملكه - مدينة مراكش ، ذهب الى مدينة فاس محمولا على محفة ، وكان رسول الدين مقيما هناك .

وصل المنصور الى فاس أول المحرم سنة ٥٨٨ ( ١٨ يناير ١١٩٢ م ) لتابعة علاجه الذى سيطول مدة سبعة أشهر . وفى خلال أسبوع أبى فى يوم ٦ من المحرم ( ٢٣ يناير ) استقبل المنصور ابن منقذ «١٥» ، حيث قدم اليه الهدية التى حملها اياها صلاح الدين «١٦» ثم شرح الغرض من سفارته وهو رغبة صلاح الدين فى تدخل الاساطيل الموحدية لحصار بلاد الكفار التى ترسل الامدادات الى الصليبيين فى الشرق ، كما يطلب المساعدة على فك الحصار عن عكا وتحريرها «١٧» .

حقيقة أن المعركة من أجل عكا كانت حامية الوطيس ، وصلاح الدين بأسطوله المحدود كان لا يستطيع ايقاف الامدادات التى كانت تأتى الى

---

(١٤) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، طبعة دوزى بليدن ، ص ٢٠٣ ، وابن علدارى (Anonimo) ، ص ٦٦ ، وروض القرطاس ، طبعة Upsala, Tornberg ، ١٨٤٣ ، ص ١٤٤ ، وابن خلدون ، العبر ، ح ٦ ص ٢٤٥ ، والسلاوى ، الاستقصا ، ح ١ ص ١٧٦ .

(١٥) كتاب الاستبصار ، مخطوطة بالمكتبة الوطنية بباريس رقم ٢٢٢٥ ص ٤٩ ب . مؤلف هذا الكتاب الذى يظن أنه كان أحد كتاب الخليفة المغربى لا يذكر شيئا عن هذه المقابلة ، اذ من المحتمل أنه كان يعرف أن رد سيده كان سلبيا ، وكل ما ذكره هو اعتقاده أن هذه الزيارة لم تكن الا لاعلان الولاء والخضوع من جانب صلاح الدين الى الخليفة الموحدى كما يقدم الامراء آيات الخضوع الى ساداتهم .

(١٦) كانت الهدية تتكون من : مصحفين كريمين بالخط المنسوب مخيشة بمسك ، ومائة درهم من دهن اللسان ، وعشرين رطلا من العود ، وستمائة مثقال من المسك والعنبر ، وخمسين قوسا عربية بأوتارها ، وعشرين نشابا هندية ، وعدد من السروج المذهبة . انظر ابن خلدون ، العبر ، حاصر ٢٤٦ ، وقابل ( ابو شامة ، كتاب الروضتين ، ح ٢ ص ١٧٣ ) و ( السلاوى ، الاستقصا ، ح ١ ص ١٧٤ ) .

(١٧) القلقشندى ، صبح ، ح ٦ ص ٥٣ . و ابو شامة ، كتاب الروضتين ، ح ٢ ص ١٧٠ وما بعدها ، وانظر Godefroy - Demombyne, Mélanges R. Basset, Une lett. de Saladin, t II, p. 288 وابن خلدون العبر ، ح ٦ ص ٢٤٦ ، والسلاوى ، الاستقصا ، ح ١ ص ١٧٥ .

أعدائه عن طريق البحر • ولكن الذى يلفت النظر هو أن بطل الاسلام فى شرق البحر المتوسط لم يكن ليجهل قطعا أن زميله المغربى كان يعيش هو أيضا عيشة صراع مستمر ضد النصارى الاندلسيين بنظم رهبانهم ، يعاونهم أمراء الاقطاع الفرنسيون الذين كانت تستهويهم المخاطرات والسعى وراء الثروة فى أسبانيا وفى الاراضى المقدسة • ولاشك أيضا أن صلاح الدين لم يكن ليجهل أن صاحب المغرب كان فى حاجة الى حشد كل قواه البحرية والبرية ، حتى يتمكن من مغالبة أعدائه والزاهم الهدوء والسكينة . وهذا يدفعنا الى التساؤل : كيف أقدم صلاح الدين على طلبه المعونة البحرية من المنصور ؟ وللإجابة على هذا السؤال نستطيع أن نفترض أن الهوية التى كان يتمتع بها المجاهد المغربى فى الشرق كان مبالغا فيها بعض الشيء « ١٨ » ، نتيجة لقوة الاساطيل الموحدية « ١٩ » • فصلاح الدين كان يرى أن خطر الصليبيين والجهاد ضدهم يحمله عبئا ثقيلا ، وأنه ينبغى أن يشاطره المجاهد المغربى هذا العبء ، وأن يتحمل معه بعض المجهود والتضحيات : أليست الاراضى المقدسة لها حرمتها وقدسيتها بالنسبة لجميع المسلمين فى العالم ! إذن فالواجب على المسلمين فى كل مكان حمايتها من خطر الكفار • وإذا كانت ممالك الصليبيين فى الشام تستقبل الامدادات والمساعدات الدائمة من أوروبا ، أى من المغرب المسيحى ، فالمشرق الاسلامى هو كذلك ينتظر بدوره امدادات ومساعدات أجدى وأقوى من المسلمين بالمغرب « ٢٠ »

(١٨) رسالة القلقشندى ( صبح ، ح ٦ ص ٥٢٩ ) تقول لم نر لمكائنة البحر الا بحرا من أساطيله المنصورة ، فان عددها واف ، وشطرها كاف ، ويمكنه - ادام الله تمكينه - ان يمد الشام منه بعدد كثير .

(١٩) يقول ابن خلدون ( العبر ، ح ١ ص ٣٧ وما بعده ) عند كلامه عن قيادة الاساطيل : « لما استفحلت دولة الموحدين فى المائة السادسة وملكوا العروتين ( البرين ) اقاموا خطة هذا الاسطول على اتم ما عرف واعظم ماعهد . . انتهت اساطيل المسلمين على عهده - يوسف بن عبد المؤمن أبو المنصور - فى الكثرة والاستجداء ما لم يبلغه من قبل ولا من بعد فيما عهدنا » .

(٢٠) القلقشندى ، صبح ، ح ٦ ص ٥٢٨ ، أبو شامة ، كتاب الروضتين ،

ح ٢ ص ١٧١ •

ولكن رغم أن ابن منقذ استعمل كل ما أوتى من مقدرة ومواهب في مديح يعقوب والاشادة بمجده «٢١» ، إلا أن اجابة المتصور لم تكن في صالحه تماما . فمع أنه خرج راضيا من الناحية الشخصية ، مغمورا بالهدايا والاعطيات ، إلا أنه أصيب بفشل تام فيما يتعلق بالفرض من سفارته ، بمعنى أنه لم ينل المساعدة البحرية المنشودة «٢٢» .

إذا حاولنا أن نتعرف على الاسباب التي دعت المنصور الى عدم اجابة طلب صلاح الدين فاننا نجد كثيرا من التفسيرات . أولها مساعدة «المماليك» المصريين - أتباع تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أخى صلاح الدين - لبنى غانية في ثورتهم بأفريقية ضد المنصور ، والتي كان صلاح الدين يظهر فيها ، ولو بصفة غير مباشرة ، بمظهر الشريك الذي لا يمكنه التهرب من المسؤولية . ففى سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٣م خرجت جماعة من الترك المصريين ( الغز أو الأغز أو الأغزاز ) تحت قيادة قراقوش وبوزبا من أتباع تقي الدين

(٢١) هنا نجد ان ابن منقذ لا يتردد في تلقيب المنصور بأمير المؤمنين فيقول في قصيدته :

إليك أمير المؤمنين ولم نزل إلى بابك المأمول ترجى الرواحل

انظر السلاوى ، الاستقصا ، ج ١ ص ١٧٥ ، ابو شامة ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٧٤ حيث ينقل هذا الشعر ولكنه يضع آية بأمير المسلمين بدلا من أمير المؤمنين أى اللقب الذى هو أقل من اللقب الخلافي . ولكن من المرجح أن ابن منقذ لم يكن يستطيع الا الاعتراف بالخلافة المؤمنية أثناء وجوده في المجتمع الموحدى بالمغرب . وقد سبق أن رأينا أن ابن منقذ كان يصر على أن يحيى المنصور بهذا اللقب وذلك قبل مغادرته مصر .

(٢٢) يقال انه مدح المنصور بقصيدة من اربعين بيتا فمنحه عن كل بيت الف درهم وقال انما اعطيناه لبيته ، ويعلق السلاوى على هذه العبارة الاخيرة قائلا ( الاستقصا ، ج ١ ص ١٧٥ ) يعنى أنه لم يعطه من أجل صلاح الدين . هنا نلاحظ أن ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ٢٤٦ ، ينسب مبادئ التاريخ العلمى حسب ما يعرضها في مقدمته ، فبعد أن يقول أن المنصور اعتذر عن عدم امكانه القيام بالمساعدة البحرية المنشودة ، يعود فيقول انه - حسب رواية اخرى - عبأ المنصور لصلاح الدين ١٨٠ مركبا وان هذه منعت النصرارى من سواحل الشام .

متجهة نحو افريقية والمغرب «٢٣» وبدأت بتوطيد سلطانها بطرابلس تحت زعامة قراقوش الذي سيعظم شأنه ويلتصق اسمه بحوادث طرابلس وافريقية في هذه الفترة وبالتالي بدولة الموحدين .

وهناك سؤال يصعب الاجابة عليه هو ماذا كان هدف قراقوش وأصحابه ؟ والظاهر أن الذين يهمهم هذا الامر لم يكونوا ليستطيعوا الاجابة على هذا السؤال . هل كان هدفهم ايجاد مأوى يلجأ اليه صلاح الدين في حالة ما اذا انتهى التنافس بينه وبين نور الدين بانتصار الاخير «٢٤»؟ أم لمناصرة البدو من بنى هلال وبنى سليم وبنى غانية ، لمحاولة اعادة بناء الدولة المرابطية ، تحت اشراف صلاح الدين وسيادة الخلافة العباسية ! أم أن قراقوش خرج من مصر ليعمل لحسابه في المغرب جريا وراء السلطان والثروة والمقامة ! ان سير الحوادث - اذ هو يوما مع الموحدين ويوما ضدهم - يجعلنا نميل الى الاخذ بهذا الرأي .

في أول حكم المنصور سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م قام بنوغانية حكام ميورقة (جزر البليار الحالية) . وهم عائلة من المرابطين لم يستطع الموحدون غز وجزرهم ، بحملة على افريقية ضد أعدائهم الموحدين ، وبدأو بفتح بجاية والجزائر ومليانة وغيرها «٢٥» . ولم تستطع جيوش الموحدين أن تقضى عليهم في

(٢٣) التيجاني ، ترجمة فرنسية ، Voyage du Cheikh at-Tijani dans la régence de Tunia, trad. Tousseau (A.), Paris, 1853, p. 102 et suivantes ، يذكر التيجاني قراقوش وابراهيم بن فراكثين ، ابو شامة ، كتاب الروضتين ، ح ٢ ص ١٧١ ، يذكر قراقوش وبوزيا وقد اخذنا به ، كتاب الاستبصار ، مخطوطه باريز ص ٥٨ ، يسميه ابوزيا ، بينما هناك خطاب رسمى موحدى (Trente-sept lettres officielles almohades, textes arabes, éd. Rabat, 1941, p. 198, études par E. Lévi-Provençal, Paris, 1942, p.62) يسميه ابو زيان ، انظر ابن عذارى ، (Anonimo) ص ٥٢ ، ابن خلدون العبر ، ح ٥ ص ٢٨٦ ( ينقل التيجاني ) ، وانظر A. Bel, Les Banu Ganiya, p.61 et suiv.

(٢٤) التيجاني ، الرحلة ، الترجمة الفرنسية ، ص ١٠٢ ، ابن خلدون ، العبر ، ح ٥ ص ٢٨٦ .  
(٢٥) انظر هامش ٢٣ .

تلك الجهات بل سيظل الصراع سجلا بين كر وفر مدة طويلة ( حوالى  
نصف قرن ) .

بنو غانية هؤلاء قاموا بحملتهم هذه باسم الخلافة العباسية وتحت  
أعلامها السوداء «٢٦» . وباندفاعهم نحو طرابلس أثناء الصراع ، وجدوا  
لأنفسهم هناك حلفاء طبيعيين هم المماليك المصريون على رأسهم قراقوش ،  
ثم من كان يتعاون معهم من عرب هلال وسليم مثل جشم ورياح والأثيج  
الذين أجابوا دعوة الميوريقيين لمساعدتهم «٢٧» . والحقيقة كان من السهل  
أن تتفق أهواء بنى غانية الذين يريدون الثأر من الموحدين ، ومحاولة  
اقتطاع الولاية الشرقية من دولتهم ، مع مصالح الترك المصريين وذلك  
لأسباب سياسية وأخرى دينية من السهل ادراكها : فالمماليك كان من  
مصلحتهم نشر نفوذ مصر الاسمى على الاقل في هذه البلاد ، وكذلك  
اضعاف سلطان الموحدين هناك ، ثم انهم بعد ذلك يستطيعون أن يؤيدوا  
مطامعهم الشخصية باعلان دوافع دينية كالتى أعلنها الميوريقيون وهى  
الاعتراف بخلافة بغداد باعتبارها السلطة الشرعية الوحيدة فى المغرب .  
هكذا بدأ بنو غانية والمماليك المصريون بالعمل سويا ضد الموحدين ، بل  
وتمكنوا من انزال هزائم منكرة بهم ، حتى أن افريقية كلها سقطت فى وقت  
بأيديهم عدا مدينتين هما تونس والمهدية «٢٨» . وقام ابن غانية بعمل سياسى  
بارع ، وهو أنه الى جانب رفع الاعلام العباسية أرسل ابنه مع كاتبه  
عبد البر بن فرسان الى الخليفة الناصر بن المستضى «٢٩» لاعلان الطاعة  
لهذا الخليفة ، وطلب الخلع والاعلام السوداء منه . وكان من الطبيعى أن

(٢٦) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٩٦ . ابن عذارى (Anenimo)

ص ٤٤ .

(٢٧) التيجانى ، الرحلة ، الترجمة الفرنسية ، ص ١٠٣ ، ابن خلدون ،  
العبر ، ح ٥ ص ٢٨٦ ، ح ٦ ص ٢٠ وما بعده .

(٢٨) ابن الاثير ، الكامل ، طبعة طورنبرج ، بليدن ، ح ١١ ص ٣٤٢ .

(٢٩) ابن خلدون ، العبر ، ح ٦ ص ١٩٢ ، انظر المقرئ ، نفع الطيب ، ح ٢

ص ٢ - ٦٤٣ .

يقابل ديوان الخليفة ببغداد هذه البعثة قبولاً حسناً ، وأن يمنح ابن غانية ما كان يمنحه للرابطين من ميزات لاسيما لقب « أمير المسلمين » ، وأن يطلب الى صلاح الدين أن يناصر المبورقين في كفاحهم «<sup>٢٠</sup>» . ورغم هذا فقد انتهى الصراع بأن عمل بنو غانية وحدهم ، أما المماليك المصريون فقد طلبوا الامان من الموحدين ، فأرسل المنصور جزءاً كبيراً منهم الى المغرب الأقصى ، للعمل في الجيش النظامي بالعاصمة «مراكش» «<sup>٢١</sup>» .

كان صلاح الدين يعلم أن أعمال أتباعه هؤلاء تعتبر أعمالاً عدائية بالنسبة للموحدين ، وأن المنصور ربما آخذه على ذلك ، ومنع المعونة اللازمة له . وعلى ذلك فإن ابن متقذ أحيط علماً بهذا ، وطلب اليه أن يعتذر عن ذلك بأن المملوكين اللذين خرجا من مصر سنة ٥٦٨ هـ ان هما الا شخصان لاخطر لهما على الاطلاق ، اذ هما من « ثقات الرجال وليسا من وجوه المماليك والامراء » ، وأنهما ليسا من أولئك الرجال الذين « اذا غاب أحضر ولا ممن اذا فقد افتقد » ، فهو يستعيز بالله من أن يأمر مفسداً يفسد في الارض .

كان من السهل اذن على صلاح الدين أن يعتذر عما فعله مملوك ابن أخيه بالمغرب ، ولكن لم يكن هناك ما يحمل المنصور على أن يصدقه أو يقبل عذره . فموقفه كان غامضاً بل ربما كان مستولاً عما حدث ولو بطريقة غير مباشرة كما رأينا ، ولاشك أن هذا كان سبباً كافياً لاز يرفض المنصور تقديم بحريته لمن كان يناهضه . ويضاف الى هذا ما أشرنا اليه من عدم اعتراف صلاح الدين للخليفة الموحدى بلقب أمير المؤمنين ، وهو اللقب الذي انتحله الموحدون لانفسهم «<sup>٢٢</sup>» .

(٣٠) ابن خلدون ، العبر ، ح ٦ ص ١٦٢ .

(٣١) عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص ١٦٠ ، ابن الاثير ، ح ١ ص ٣٠٩ ،  
G. Marcais, Les Arabes en Berberie du XIe au XIVe siècles, انظر  
Constantuin-Paris, 1913, pp. 198 et suivantes.

(٣٢) انظر ابن خلكان ، الوفيات ، ح ٤ ص ٣٨١ الذي يقول ان صلاح الدين كتب اليه بلقب أمير المسلمين وليس بلقب أمير المؤمنين ، قابل ابو شامة ، كتاب الروضتين ، ح ٢ ص ١٧٤ ، السلاوي ، الاستقصا ، ح ١ ص ١٧٤ .

هذه الاسباب وتلك العلل لها قيمتها وربما كان لها تأثيرها ، الا أنها تظهر ثانوية بالنسبة للعوامل الاخرى التى لها صبغتها الجدية . ففى هذا الوقت كان المنصور مريضا ، ولم تكن فترة مرضه خطيرة على شخصه فحسب بل على حياة دولته أيضا ، فكان عليه قبل أن يفكر فى مساعدة المسلمين بالشرق أن يركز اهتمامه لاستتباب الامن والسلام داخل دولته ؛ وأن يتتقن كل محاولة أئيمة ضد خلافته . ففى هذه الاثناء نراه يقتل أخاه أبا يحيى الذى أراد أن يدعو الى البيعة لنفسه بدلا من أبى محمد عبد الله ابن المنصور الذى كان أعلن وليا للعهد فى هذا الوقت «٣٣» . والى هذا فان موقف المنصور لم يكن أفضل من موقف صلاح الدين ، فهو لم يكن يستطيع أن يقدم المعونة البحرية المنشودة ، والتى كان يرغبها من غير شك جميع المسلمين ، لانه فى حاجة الى كل قواته البحرية لمواصلة الصراع ضد الميورقين القراصنة ، ثم انه كان عليه أن يحمل كل قواته البرية الى أسبانيا عبر المضيق ، وأن يؤمن طريق مواصلاته ضد قوات أعدائه البحرية ، والدفاع عن ثغور الاسلام فى الغرب ضد كل خطر بحرى مثل ذلك الذى دعا الى سقوط شلب (Silvès) بين أيدي البرتغال سنة ١٥٨٥م ١١٨٦م «٣٤» .

وستثبت الحوادث التالية فى أسبانيا أن المنصور كان محقا عندما رفض توزيع قواته ، كما أن الانتصارات العظيمة التى سيجرزها ضد ممالك النصرارى القتية هناك ، و لاسيما انتصاره الباهر فى موقعة الارك ضد قشتاله ، ستثبت أن تقديره للموقف لم يكن خاطئا .

يتضح مما سبق أن طلب صلاح الدين المساعدة من المغرب أثناء كتحاحه ضد المسيحية فى سبيل تحرير الاراضى المقدسة قوبل بالرفض من جانب المنصور الموحدى ، ذلك الرجل الذى كان «مظهرا للشريعة غازيا» «٣٥» .

- 
- (٣٣) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٢٠٤ .  
(٣٤) ابن عذارى (Amonimo) ، ص ٥٧ - ٥٨ ، ابن خلكان ، الوفيات ، ح ٣ ص ٣٧٥ ، عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٩٦ ، الحميرى ، الروض المطار ، ص ١٠٦ .  
(٣٥) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ح ٢ ص ١٧٤ .

والذى كان متعصبا للإسلام الى أقصى حد .

ولكن رفض مثل هذا الطلب العزيز على قلوب المسلمين جميعا لم يكن ليتم دون أن يكون له صدى لاسيما وأن المغاربة كانوا يجاهدون الى جانب اخوانهم المشاركة بالشام «٢٦» . ذلك الصدى سيظهر بعد وفاة المنصور سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٩ م . فقد نبئت رواية تقول ان المنصور لم يمت وانما زهد في الدنيا وساح في الارض نحو الشرق متعبدا . كان ابن خلكان أول من أثار هذه المسألة «٢٧» ذاكرا أنه يوجد في قرية قريبة من المجدل بفلسطين قبر يؤكد الجميع أنه قبر يعقوب المنصور ، ومع هذا فقد عاد ابن خلكان وذكر أن المنصور مات بالمغرب .

هذه المتناقضات التى ينقلها أغلب الكتاب المتأخرين عن ابن خلكان تدعونا الى محاولة النظر فى هذه المشكلة قبل وضعها فى صف الخرافات والاعتقادات الشعبية الزائفة . ومن الغريب حقيقة أننا نجد فى تاريخ الموحدين كثيرا من الغموض الذى يحيط بنهاية كثير من شخصياته الكبيرة «٢٨» . ويمكن أن تفسر هذه الظاهرة بأسباب كثيرة : منها الصدفة المحضة ، ومنها اغراض المؤرخين المتأخرين وخاصة من كتب منهم أيام بنى مرين أعداء الموحدين وخلفائهم بالمغرب الاقصى ، ومنها عادات وتقاليد المجتمع المغربى الذى يتعلق بالاشياء الخرافية والخرافة للمعادة . ولكن هناك سؤالا لا بد من البحث له عن جواب . وهو اذا كان من المعقول أن يتعلق المغاربة بأمرهم العظيم الى درجة تمنعهم من أن يجعلوه يموت طبيعيا

(٢٦) انظر ابن جبير الرحلة ، طبعة ليدن ، ١٩٠٧ ، ص ٢٠٧ .  
(٢٧) الوفيات ، ح ٢ ص ٢٧٩ ، المقرئ ، النفح ، ح ٢ ص ١١٩٠ ، السلاوى الاستقصا ، ح ١ ص ١٨٤ .

(٢٨) عن موت القائد الوثنيى انظر ابن الاثير ، ح ١٠ ص ٤٠٧ ، عن وفاة محمد بن تومرت انظر روض القرطاس لابن أبى زرع ، ص ١٨ (CF. EF. 7) (Gautier, Passé de Afrique p66-7) عن مصرع يوسف بن عبدالمؤمن انظر ابن الاثير ، ح ١٠ ص ٢٢١ ، ابن خلكان ، الوفيات ، ح ٣ ص ٤٦٥ ، المقرئ ، النفح ، ح ٢ ص ١١٨٨ ، عن وفاة ابى عبد الله محمد الناصر انظر ابن خلكان ، الوفيات ، ح ٢ ص ٢٨٢ .

كما يموت غيره ، وتدفعهم الى أن يحيطوا موته بهالة من الغموض والعظمة، فكيف تفسر ما يقوله المشاركة من أن قبره موجود بأرضهم بالشام حسب ما يؤكد ابن خلكان ! هذه النقطة التي دعت السلاوي «٢٩» الى عدم اهمال هذه الرواية ووضعها في صف الخرافات الشعبية كما فعل ابن الخطيب «٤٠» والمقرئ «٤١» . ولمحاولة الرد على هذا السؤال نحاول النظر في المسألة من الناحية التاريخية الصرفة : يتبين من المصادر الموثوق بها - رغم اختلافها بالنسبة لتحديد تاريخ وفاة المنصور - ان المنصور توفي في الشهور الأولى من سنة ٥٩٥ هـ ، وهناك احتمال كبير في أن يكون قد مات يوم ٢٢ من ربيع الأول من هذه السنة (٢٢ يناير سنة ١١٩٩) «٤٢» كما يمكن التأكيد بأنه دفن في مدينة تنمّل الى جانب ابن تومرت وجده وأبيه «٤٣» . ورغم أن موقف الدولة كان قد تحسن في اسبانيا بانضمام النصارى أمام جيوش الموحدين فانه لم يكن قد استقر بعد في افرقية لوجود بنى غانية ، ثم أن ولى العهد لم يكن قد بلغ العشرين ، وعلى هذا لم تكن الظروف تسمح للمنصور بأن يتخلى عن مهام الحكم ليتفرغ للعبادة والرحلة المتصوفة نحو الشرق . ولكننا في نفس الوقت نعلم أنه كان قد

(٣٩) الاستقصا ، ح ١ ص ١٨٤ .

(٤٠) رقم الحلل ، ص ٥٩ .

(٤١) النفح ، ح ٢ ص ١١٩ .

(٤٢) ابن عذارى (Anonimo) ص ٨١ . يقول المؤلف ان ابنه محمدا اعتلى العرش يوم ٢٢ من ربيع الاول سنة ٥٩٥ ، روض القرطاس ، ص ١٤٢ ، ١٥٢ ، يقول انه مات ليلة الجمعة ٢٢ من ربيع الاول سنة ٥٩٥ ، ابن الخطيب ، رقم الحلل ، ص ٥٩ (٢٨ ربيع الاول ٥٩٥) ابن الابار ، تكملة الصلة ، طبعة Cookra بمدريد سنة ١٨٨٧ ، ح ١ ص ٢٧٠ ( شهرا بعد موت ابن رشد الذي توفي في ٩ من صفر سنة ٥٩٥ ) ، ابن الاثير ، ح ١٢ ص ٩٥ ( ١٨ من ربيع اثناني سنة ٥٩٥ ، ١٨ من جمادى الاول سنة ٥٩٥ ) ، الحلل الموشية لمؤلف مجهول ، طبعة الرباط ، ص ٣٤ ( ربيع الاول سنة ٥٩٥ ) ، عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص ٢٢٤ ( اول صفر سنة ٥٩٥ ) ، ابن خلكان ، الوفيات ، ح ٢ ص ٣٧٩ ( اول جمادى الاول ٥٩٥ ، ١٧ ربيع الثاني ، اول صفر ) .

(٤٣) الحلل الموشية ، طبعة الرباط ، ص ١٣٤ ، روض القرطاس ، ص ١٤٢ ، انظر F. Ferriol, Les ruines de Tinmel, Hespéris, 1922, p. 163.

أظهر الرغبة في المسير الى الشرق ومصر لتطهيرها من البدع واطهار الدين الصحيح «٤٤» . ونحن نتذكر أن هذه الفرصة كانت سنحت له عندما طلب صلاح الدين اليه أن يمدّه بالمعونة العسكرية التي كان يرغب في تحقيقها كل المسلمين .

نظن أن رفض المنصور تلك المساعدة كان له صدى في نفوس المغاربة المقيمين بالشرق ، وكان عدد كبير منهم يحارب بالشام . هذا الصدى هو الذي دعا الى نسج خيوط هذه القصة القائلة بأنه ترك سلطانه واتخذ طريق الاراضى المقدسة - حيث لقي النصارى صدمات عنيفة من المسلمين - وهناك مات قرب المجدل . نستنتج من هذا أنه يمكن اعتبار رحاة الزهد هذه في نظر مؤلفي هذه القصة كاعتذار من جانب المنصور يشترى به نفسه ، وكمثل من أمثلة الورع والدين الصحيح يضربه المغرب للمشرق . ويمكننا أن نستنتج من ذلك أيضا أن القصة الخرافية التي ظهرت - وهذا شيء غريب - في المشرق انما هي مغربية الاصل . يؤيد ذلك قصة مغربية - لحما ودما هذه المرة - تقول أن يعقوب لم يتجه نحو الشرق من أجل التعبد والزهد ، انما ذهب الى الاندلس كمرابط في الثغر للجهاد ضد الكفار «٤٥» .

(٤٤) عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص ٢٠٦ - انظر ابن جبير ، الرحلة ، طبعة ليدن ، ١٩٠٧ ص ٥٢ ، ٧٨ ، ٧٩ ( يرى الكاتب الذي يزور مصر في تلك الفترة أن كل الدلائل تظهر ان الموحدين سيفتحون مصر وأن المصريين انفسهم يتشوقون الى ذلك ) .

(٤٥) الزركشي ، تاريخ الدولتين ، طبعة قسطنطينية ، ١٩٥ ص ١١ .